نظرة في النحو

للأستاذ طه الراوي

قالوا : ان العربية مفتقرة الى معجم لغوي يتحلى بخصائص المعاجم العصرية في اللغات الحية وحق ماقالوا ، ولكنهم نسوا ان إلى جانب هذا الافتقار افتقاراً آخر لا يقل عنه مسيسا ، ان لم يُربِ عليه . ذلك هو وضع كتاب في النحو يتحلى بأكمل ما يتطلبه العصر من جودة في التهذيب ، واتقان في التبويب والترتيب ، ليكون معتمداً لجمهرة المؤدبين ، وموردا لمن لم يتأهل لخوض غمار الاسفار المبسوطة من المتعلمين .

ولا يتأتى ذلك الا على يد فئة من اعلام العصر احاطت علما بما انقلب عليه هذا العلم في اطواره المختلفة من رفع وخفض وابرام ونقض ، زيادة على الاحاطة بمذاهب اهله ، واساليبهم في تثبيت آرائهم . تنظر هذه الفئة فيه نظرا بعيدا عن التعصب لمذهب والتحيز الى رأيه ، فتمخض قواعده ومسائله محضا علمياً ، وتخرج زبدته خالصة فتودعها كتابها .

والا فان ابقاء هذا العلم على ما هو عليه من التدافع في المذاهب ، والتضارب في الآراء ، والتشعث في القواعد والمسائل — يدعو الى اطلاق يد الفوضى فيه ، واجفال الناشئ عن تعاطيه ، او بالاقل يشيزرونه ويستثقلون ظله ، هذا في الوقت الذي نجد فيه الامم الراقية دائبة كل الدأب في تسهيل لغاتها على ابنائها وغيرهم وتحبيبها اليهم بتهذيب مسائلها وصقل قواعدها ، وتقريب فوائدها ، مما يدعو لنمائها ولانتشارها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولعمري لو جمد أوّلونا على ما وضعه لهم أسلافهم من حدود واستخرجوه لهم من قوانين — جمودنا اليوم لما وصل هذا العلم الى ماوصل اليه من الثروة في القواعد والبسطة في المسائل ، ولكنهم جدوا ، وبذلوا الوسع ، وجددوا في هذا الشأن بقدر ما تسمح به طبائع ازمانهم ، والوان بيئاتهم (وكان سعيهم مشكوراً) .

وبقي علينا اليوم أن نأخذ بحظنا من الخدمة في هذا الباب بمقدار ما يتطلبه مزاج العصر من اصلاح وما تسخو به الطاقة من جهد .

واريد ان ألم في هذا المقال بتشخيص بعض العاهات التي عرضت للنحو (اريد به ما يشمل الصرف) والآفات التي منيت بها كتبه ، ولا بد لايضاح ذلك من تقديم كلمة في نشأته وافتراق مذاهبه .

تمهيد تاريخي :

عند ما اتسعت لاجدادنا رقعة الفتوح ، واتسعت لهم الدولة ، ضربوا في الارض وانبسطوا في الآفاق ، وخالطوا صفراء الامم وحمراءها ، واحتكت لغتهم بلغاتهم ، ولم تكد تستقر بهم الحواضر حتى آنسوا فارط اللحن يتمشى في حواشي لغتهم ، ويدب على السنة احداثهم ، فراعهم ذلك ، وعز عليهم ان تطغي العجمة على لغتهم ، ولغة دولتهم بل لغة ملتهم ، التي هي سر نهضتهم ومصدر عزتهم ، فحفزت الحمية القومية والغيرة الدينية رجالا منهم لنصرتها ، والذب عنها .

وكان مجلى الحلبة في هذا المضمار ابو الاسود الدؤلي الكناني ، احد اعلام التابعين بارشاد من الامام علي رضي الله عنه ، وكان من ارباب البصائر الحية ، فاستعرض طائفة من كلام العرب ، وتوصل الى استخراج طائفة من المسائل ، واستنباط بعض القواعد اسماها (النحو) ، ودونها في صحيفة له ، عرفت عند النحاة بالتعليقة ، وهي اول كتاب دون في علم اللسان العربي .

وبهذا نعلم ان النحو اسبق علوم اللغة وضعاً وتدوينا ، والسبب في هذا ان بوادر اللحن واعراض الفساد هجمت على الاعراب ونظام التركيب ، قبل هجومها على مفردات الكلام وموضوعاتها ، ولذلك احتاجوا الى وضع قوانين تعصم اللسان والقلم عن الخطأ في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نظام التركيب ، واصول الاعراب ، قبل احتياجهم الى ضبط مفردات الكلم وتحديد موضوعاتها .

البصريون والكوفيون

وابو الاسود وان كان كوفي المولد ، الا انه بصري النشأة ، وفي البصرة وضع حجر الزاوية في أساس نحوه ، وكان تلامذته من اهلها ، ولذلك بقي النحو ربيبا للبصريين يتنقل في حجور ائمتهم ، الى ان كان عصر الخليل بن احمد الفراهيدي ؛ فجمع متفرقه ، وفصل قواعده ، وهذب مسائله ، واكمل ابوابه ، وتقدم الى سيبويه — وكان من انبه تلاميذه ، وأسماهم همة — أن يجمع ذلك في كتاب ، ففعل وابدع ما شاءت له قوة درايته وسعة روايته .

وانتقل بعض البصريين من النحاة الى الكوفة ، واتخذها دار اقامة له ، واخذ ينشر النحو بين ظهرانيها ، وكان في الطليعة من هؤلاء ، عبد الرحمن التميمي (المتوفى سنة ١٦٤) ، ثم ابو جعفر الرؤاسي ، وعمه معاذ بن مسلم الهراء ، مبدع علم التصريف .

وأشهر من تخرج بهؤلاء وأنبههم علي بن حمزة الكسائي ، وكان ممن يحضر في حلقة الخليل ، ثم ضرب في البوادي سنين كثيرة ، يأخذ عن الصميم من اهلها ، ولم يزل يدأب في الجمع والتحرير ، حتى انتهت اليه امامة العربية في الكوفة ، ولم يتقيد بمذاهب من سبقه في التأصيل والتفريع ورسم للكوفيين الحدود التي احتذوا امثلتها وخالفوا فيها البصريين ، فهو عند الكوفيين بمكانة الخليل عند البصريين وعلى يده امتاز نحو الكوفة عن نحو البصرة ، واحتدم الجدال وتطاير شرر المناقشة بين الفريقين .

البغداديون والأندلسيون

ولما أُنشئت بغداد ، وصارت حاضرة الخلافة ، وراجت فيها سوق الآداب ، وكان الكوفيون أسبق الناس اليها لمكانة الكوفة منها من الوجهتين السياسية والجغرافية فكان علماؤها أشد الناس اتصالاً بقصور الخلفاء والأمراء ، والصدور من حلق التدريس ومحافل الآداب فيها ، فكان للكسائي عند الرشيد ولتلميذه يحيى بن زياد الفراء ، منزلة مغبوطة ، وقد كان المأمون رسم أن يفرد للفراء مكان خاص في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دار الحكمة ، ووكل به من يكفيه كلّ حاجته ، وعين له الوراقين وألزمه الأمناء والمنفقين ، وأمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب ، فكان يملي والوراقون يكتبون حتى أتم تصنيف كتابه المعروف بكتاب (الحدود) .

وتخرج بهؤلاء الكوفية جماعة من البغدادية ، ولعوا بالتوسع في الروايات ، والتباهي في الترخيصات ، والتفاخر بالنوادر والطرائف ، حتى ابتعدوا عن أصول أشياخهم ، واستوى لديهم مذهب امتاز عن مذهب أسلافهم ، عرف بمذهب البغداديين

وازدحمت أقدام الأعلام حول مناهل هذا العلم واكثرت التصانيف فيه ، ما بين مطولة ومختصرة ، وبين عامة مشتملة على جميع أبوابه ، وخاصة في باب او بضعة أبواب ، وكثر الأخذ والرد بين البصرية والكوفيه والبغدادية ، واختلط اللجاج بالحجاج ، وبينا الناس في هذا التسابق في المشرق كان النشاط آخذاً مأخذه في بناء الدولة الأندلسية في المغرب على أرصن الأسس وأقواها ، وكان لملوك تلك الدولة ولوع عظيم في رفع معالم العلم وإقامة أسواق الأدب ، اقتفاء لآثار أوليهم في شامهم ، وإحياء لمآثرهم في زهر أيامهم ، ومباراة لأبناء عمهم في بغدادهم ، فكان همهم الحدب على أبناء الأدب ، والحرص على تكريمهم وتبجيلهم وادرار أخلاف النعم لهم حافلة ، فأقبل الناس على الآداب يردون حياضها ويرتادون رياضها ، فكان من آثار ذلك أن أنجبت تلك المملكة نخبة من الأعلام ، رجعوا الى ما أصّله العراقيون وما فرعوه على اختلاف المذاهب ، فأطالوا النظر فيه ، ووقفوا على ما بين تلك المذاهب من خلاف ووفاق ، وما يستند اليه كل فريق من رواية ودراية فشقوا لهم طريقاً سويا ، كان عمودهم فيه مذهب البصرية ، لم ينحرفوا عنه الا عند مايجدونه منحرفاً عن حكم الرواية ومنهج الدراية .

كما قال أبوحيان : نحن لم نتعبد بمذهب البصريين ، وإنما نتبع الدليل . ولما طغى سيلُ الإفرنجة على تلك الديار ، وفُجعت سماؤها بشموسها والأقمار ، اتجهت أنظار الكثير من أعلامها إلى الهجرة نحو المشرق ، فوجدوا أن مذهبهم قد سبقهم اليه ، فكان لهم الصدور من حلق التدريس ومحافل الآداب ، وكان لمذهبهم مكانته من الاعتبار وحظه من الانتشار ، هذه هي أمهات المذاهب في هذا العلم ، وهناك مذاهب متفرعة عن هذه يعسر حصرها ، إذ يكاد يكون لكل إمام مذهب يخالف فيه غيره ؛ ولو من بعض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوجوه . فلسيبويه مثلاً : آراء يخالف فيها أشياخه ، وللأخفش آراء يخالف فيها سيبويه وسائر البصرية ، وقد ألف المبرد — وهو بصري النزعة — كتاباً في الرد على سيبويه ، وللفراء مذهب ينحرف فيه عن مذهب الكسائي في غير ما موطن ، وهكذا نجد لكل علم من أعلام العربية آراء ينفرد بها ، تكثر أو تقل بمقدار ما أوتيه من بسطة في العلم وبراعة في الإبداع ، ولكن مرجع ذلك كله الى الامات الأربع ، وأصول تلك الأمات اثنان: البصرية والكوفية ، أما مذهب البغدادية فمرجعه الكوفة ومذهب الأندلسية يرجع الى البصرية .

وأجلى ما يمتاز به مذهب البصرية ، ابتناء قواعده على الأغلب الشائع من كلام العرب وتحكيم المقاييس العقلية في الكثير من شؤونه ، وإذا اصطدم أصل من أصوله بسماع غير مشهور ، فزع الى التأويل والتوجيه ، أو رمى المسموع بالشذوذ أو الندور ، بل بالتخطئة أحياناً .

أما مذهب الكوفيين فيلواؤه بيد السماع ، لا يخفر له ذمة ، ولا ينقض له عهداً ، ويهون على الكوفي نقض أصل من أصوله ، ونسف قاعدة من قواعده ، ولا يهون عليه إطراح المسموع على الأكثر .

والبصريون يتصابون في أمر الرواية تصلباً لا يتقيد به رجال الكوفة ، ولذلك نرى أولئك يستخفون برواية هؤلاء ويشزرون رواتهم بعيون ضيقة ، ولا يعلم أن بصرياً روى عن كوفي شيئاً من الشعر يعتمد عليه في الشاهد ، إلا ما كان من أبي زيد الأنصاري ، فانه روى شيئاً منه عن المفضل الضبي قال : لثقته وأمانته .

ويزعم البصريون أنهم انما أخذوا عربيتهم عن الأعاريب العاربين في كبد الجزيرة ذوي السلائق المتوقحة ولا ثقة لهم بمن يجاور الأمصار ويتصل بالأرياف منهم، بخلاف الكوفيين فانهم يأخذون عن أولئك وهؤلاء على حد سواء .

ومن ينظر في نحو البصرة يجد أن القوم يبالغون فيما يزعمون ، أنظر كتاب سيبويه تجد فيه طائفة من شعر الأخطل والفرزدق بل من شعر بشار وهو من مولدي شعراء البصرة ، بله شعراء الأرياف ومجاوري الأمصار .

وبالجملة فإن مذهب البصرية أضبط قياساً ، وأتقن دراية ، ومذهب الكوفية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أكثر تشعباً وأوسع رواية ، وأنت ترى أن البصريين في تشددهم ، وتحكيم قوانينهم ، ضيقوا على العربية واسعاً في كثيرٍ من المواطن التي تتطلب السعة ، حتى لقد ضاق النحو الذي قدروه بمقاييسهم عن أن يسع نفسه ، وهو في ريعان شبابه ، ونعومة اهابه ، فوقعوا في تلحين خاصتهم و كبار أئمتهم ، فقالوا لحن سيبويه في كتابه ، ولحن فلان وفلان وهم من أئمة هذا الشأن ، بله الفقهاء والمفسرين والمحدثين والفلاسفة والمتكلمين وسنشير إلى أمثلةٍ من هذا في غضون هذا المقال .

ولا ينكر أن بعض المتأخرين من النحويين كابن مالك وابن هشام الأنصاري ومن تبعهما ، انتبهوا لهذا الأمر وحاولوا أن يفصموا شيئاً من تلك القيود التي لا تجتمع والرواية في مكان . فكان النجاح حليفهم في مواطن كثيرة ، وبقي على غيرهم أن يتم ما بدأوا به ولكنه لم يأت بعد ابن هشام من النحويين من نهج منهجه في التجديد والإصلاح ، فبقي الأمر محتاجاً الى معالجة ، فهل يوفق أبناء هذا الجيل للقيام بهذه المهمة والفوز بهذه الخدمة ؟ نترك الجواب على هذا السؤال لاعلام الادب وأمراء البيان .

ينابيع الشاهد

عندما انصرف العرب الى استخراج مسائل النحو ، وضبط قوانينه . وجدوا امامهم ثلاثة ينابيع واسعة : التنزيل والحديث ، وكلام العرب الموثوق بعربيتهم ، وكان على النحوي الا يقطع في تقرير قاعدة او ضبط قياس . الا بعد ان يتقرى هذه الينابيع بقدر طاقته ، وعلى مبلغ حظه من روايةٍ ودراية ، ولا جرم أنه يتعذر على الفرد الواحد الاستقصاء في الاستقراء ، مهما أوتي من بسطةٍ في العلم ومثابرةٍ على الكد والجد ، فلا بد بعدئذ من الاعتماد على الاستقراء الناقص ؛ بالنسبة للفرد ، وأما المجموع فيراد منهم اكثر من ذلك ؛ بمعنى أن الواحد لا يمكنه الإحاطة بكل ما في العربية من منثور ومنظوم ولكن مجموع ذلك ، أو عظمه مفرق على جميع علماء العربية .

فالاستقراء الفردي لا يؤدي إلى الطمأنينة فلا بد من المصير إلى استقراء الجماعات ثم إن الاطلاع وحده لا يغني شيئاً ما لم يعضده الانتباه إلى محل الشاهد ، وموطن الاستنباط فاذا فرضنا أن الجماعة — بله الواحد — أمعنت في الاستقراء والاستقصاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لكان غم عليها موضع الشاهد . فكأنها لم تستقرَ ولم تستقص . ولا جدال في ان ما يبنى على الاستقراء والانتباه الناقصين لايكاد يسلم من النقص .

اذا عرفنا هذا انكشف لنا السر في سعة شقة الخلاف بين علماء العربية وتشعث الكثير من الضوابط ، بكثرة ما يعقبها من كثرة في الاستدراك ، واختلاف في وجوه النظر .

ولإضاءة طرف من هذه الناحية رأينا ان نفرد لكل ينبوع من تلك الينابيع فصلا برأسه ، نجمل فيه مبلغ حظ النحو منه ، او حظه من عناية النحويين به ، او تفريطهم في جنبه .

القرآن الكريم :

لا جدال في ان القرآن هو الينبوع الاعظم ، والبرهان الاقوم ، في تقرير قواعد النحو ، وتحرير مسائله . وقد اجمع النحاة على صحة الاحتجاج بقراءاته المختلفة ، متواترها وآحادها وشاذها . وحق ما اجمعوا عليه ، لان القراءات على اختلاف انواعها انما تستند على المشافهة بالرواية ، وعلى رسوم امات المصاحف العثمانية . فهي وان انفردت او شذت ، اقوى بكثير من سائر المرويات من الكلم التي ليست بقرآن .

وقد عهدناهم يستشهدون بالروايات المختلفة في البيت الواحد فكيف لا يحتجون بالقراءات المختلفة في الآية الواحدة .

وعلينا هنا ان ننبه الى « ان ائمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الافشى في اللغة ، والاقيس في العربية . بل على الاثبت في الاثر . والاصح في النقل .. والرواية اذا ثبتت عنهم لا يردها قياس عربية ، ولا فشو لغة . لان القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير اليها » . و « الاسناد » الصحيح هو الاصل الاعظم والركن الاقوم » عندهم ولا تجوز القراءة بالقياس المطلق قطعا . وكل قراءة لم تستند على الرواية فهي مردودة وان وافقت مقاييس النحاة .

وكان على النحاة ان يستفيدوا من هذا التشدد في التقيد ، ويصرفوا جل عنايتهم الى الاستعانة بتلك القراءات التي تتمثل فيها افصح لغات العرب واسماها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن هل فعلوا ذلك ، واعطوا تلك القراءات حظها من الرعاية ؟

نحيل الجواب على هذا السؤال الى الأمثلة التالية :

قال البصريون : لا يجوز الفصل بين المضاف والمضاف اليه الا في ضرورة الشعر فعورضوا بالقراءة المتواترة (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادَهم شركائِهم) بنصب (اولادهم) وجر (شركائهم) وفيها الفصل بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول به وهو (اولادهم) فلم يكن من متشددي البصريين المتعصبين لهم الا اقامة النكير على هذه القراءة والاجتراء على تلحين علم من اعلام القراء السبعة ، تلقى قراءته عن كبار التابعين وبعض كبار الصحابة منهم الخليفة الثالث وابو الدرداء ، وهو — بعدُ — من ضميم العرب الذين يحتج بكلامهم ، وقد تلقى قراءته هذه عن الاثبات ، وتلقاها عنه الثبات بعد الثبات ، ذلك هو (عبد الله بن عامر) قاضي دمشق وشيخ مشايخ قرائها ، وامام جامعها الاعظم ، على عدان عمر بن عبدالعزيز .

وكان اشد علماء العربية انكاراً عليه في هذه القراءة (جار الله الزمخشري) ، وكان عليه ان يستنكر المنع ، لان القرآن الكريم يجب ان يكون متبوعاً ، لا تابعا ، ولكن ما الحيلة وقد ارادوا العكس ، وجاء في قراءة بعضهم (فلا تحسبن الله مخلفَ وعدَه رُسُلَه) بنصب (وعده) وجر (رسله) وفيه الفصل بين المتضايفين بالمفعول به ايضا ، ولكن البصريين لم يعرجوا على هذه القراءة ، ولا على تلك ، ومضوا في رأيهم سادرين .

وقالوا : لا يجوز العطف على الضمير المجرور الا باعادة الجار ، الا في ضرورة قبيحة ، ولم يأبهوا للقراءة المتواترة « واتقوا الله الذي تساءلون به والارحامِ) بكسر الميم عطفاً على الضمير المجرور بالباء ، وهي قراءة حبر الامة (ابن عباس) و (الحسن البصري) و (حمزة) احد الاعلام السبعة .

وقالوا : تبدل الهمزة من حرف المد الزائد الواقع بعد الف مفاعل ، نحو (عجائز) و (صحائف) و (سفائن) والاصل (عجاوز) و(صحايف) و(سفاين) ، قالوا : واذا كان حرف المد اصلياً امتنع قلبه همزة ، مثل (معايب) و (معاون) فلا يقال فيهما (معائب) و (معائن) ، ولما عورضوا بقول العرب (مصائب) و (منائر)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قالوا بشذوذهما ، واوردت عليهم قراءة نافع احد القراء السبعة (لكم فيها « معائش ») فقالوا هي خطأ ، كأن نافعاً جاء بها من عند نفسه ، ولم يروها عن العشرات من الثقات .

ومن امثلة ذلك قول ابن مالك في شرح كافيته : ان (بل) لا تقع في التنزيل الا للانتقال من غرض الى آخر ، وفاته انها جاءت فيه لابطال ما قبلها واثبات ما بعدها (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون) (ام يقولون به جنة بل جاءهم بالحق) .

وقال ابو حاتم السجستاني في قوله تعالى (وقيله يارب) لا يجوز ان يقرأ (قيله) الا بالنصب « واما من جر ، او رفع فقوله بظن وتخليط » مع ان القراءة بالجر ثابتة بالتواتر قرأ بها (حمزة) و(عاصم) من السبعة .

وقالوا ان الجملة الاسمية اذا وقعت جوابا للشرط وجب ربطها بالفاء وقد تنوب عنها اذا الفجائية ، ولما اورد عليهم قوله تعالى (والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون . واذا ما غضبوا هم يغفرون) ، فزعوا الى التأويل . وعندما قالوا ان (اذا) في الآيتين ليست بشرطية وانما هي ظرف لخبر المبتدأ بعدها ، واذا سألتهم الدليل قالوا لو كانت شرطية هنا لوجب اقتران جوابها بالفاء ، وهل هذا الا مصادرة ذميمة .

ولما اورد عليهم قوله (ان ترك خيراً الوصية للوالدين) لم يتمكنوا من القول بان (إن) غير شرطية ، ولكنهم زعموا ان جواب الشرط محذوف والتقدير : كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت الوصية للوالدين ان ترك خيراً فليوص . ولا يخفى ما فيه من تكلف ظاهر .

وقال فريق لا يجوز تسكين لام الطلب بعد (ثم) الا في ضرورة الشعر ، ولم ينتبهوا للقراءة المتواترة (ثم ليقطع) ثم (ليقضوا) فقد قرأ جمهور القراء السبعة بتسكين اللام .

وقال طائفة فيهم المازني والاخفش والمبرد ، وابن السراج ، والفارسي : لا يجوز صوغ اسم التفضيل من (أفعَل) الرباعي الا شذوذا ولم يلتفتوا الى قوله تعالى (ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة) فانهما مصوغان من (اقسط) واقام ولا يجوز ان يقال انه من (قسط) الثلاثي لان معناه جار ولم يعدل ، وهو عكس المراد في الآية الكريمة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والامثلة في ذلك اكثر من ان يتسع لها مقالنا هذا ، ومن هنا يظهر ان القوم قرروا بعض قواعدهم، وحرروا بعض ضوابطهم، قبل ان يستقروا القرءان الكريم ، ويستقصوا وجوه قراءاته كاملة ، وعندما يجدون قاعدة من قواعدهم هذه تقصر عن شمول بعض القراءات المعتبرة ، يعمدون الى التأويل يقلبون وجوهه والوانه ، كالذي فعلوه في قوله تعالى ، (ان هذان لساحران) وقوله (والمقيمين الصلوة والمؤتون الزكوة) وقوله (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) .

وقد بلغت الجرأة ببعض الذين في قلوبهم مرض ان زعموا ان هذه القراءات خطأ تولد من خطأ كتاب المصاحف العثمانية في الرسم ، وهذا بهتان عظيم ، ساعدهم عليه جهلهم او تجاهلهم اصول الاقراء اذ يظنون أنه يكفي فيه الاعتماد على الرسم وحده ، وهذا خطأ فاحش ألمعنا اليه في صدر هذا الفصل، وقلنا ان العمدة في ذلك ؛ الاخذ بالمشافهة ، والتلقين بالمدارسة . ولا يعتمد على الرسم وان وافق مقاييس العربية .

فاذا فرضنا — جدلا — ان كتاب المصاحف اخطأوا في الرسم ، فهل يعقل ان يسري الخطأ الى حفاظ الصحابة الذين شهدوا الوحي ، واخذوا القرءان حرفا حرفا عن الرسول الكريم ، وهم — بعدُ — امراء القول ، وفرسان الفصاحة ، وكلامهم حجة قاطعة في العربية ، فضلا عن رواياتهم في قراءاتهم .

زد على ذلك ان العربية بل البشرية لم تعرف كتابا احيط بالعناية ، واكتنف بالرعاية فحوفظ على تراكيبه ، وكلماته ، وحروفه ، وحركاته ، وكيفية ترتيله بلهجاته مع اتقان متناهٍ في التلقن والتلقين ، ودقة بالغة في الاخذ والاداء — مثل الكتاب العزيز فكيف يراد منه بعد هذا ان يدين لضوابط وضعية تمخضت بها استقراءات ناقصة ، وتحكمات باطلة ، ومن المؤسف ان صنيعهم هذا ادى الى نتيجة مضحكة ، تلك هي اندفاع بعض الجهلة او المتجاهلين من اعداء القرآن ؛ الى القول بان فيه لحنًا ، ظنا منهم ان كل ما يخرج عن مقاييس النحاة الوضعية فهو لحن ، وان كان في الذؤابة من الفصاحة ، وسمو المكانة من البلاغة ، وفاتهم ان تلك القوانين يجب ان تستمدّ من الكتاب العزيز ، وتدين له بالاذعان ، لانه افصح كلام عرفه اللسان العربي المبين ، وما يخرج عليه منها يجب ان يرمى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

به عرض الفضاء .

يحكى ان احد المتفلسفة جاء الى ابن الاعرابي يسأله عن قوله (فاذاقها الله لباس الجوع والخوف) قال : (اتقول العرب : ذقت اللباس ؟ فاجابه بالايجاب ثم قال له : هبك تتهم محمداً لم يكن نبياً ، أتتهمه بان لم يكن عربياً ؟؟؟) ونحن نقول لبعض الغلاة من متشددي النحاة ، هبكم تتهمون بعض رجال الاقراء بالتساهل في الرواية اتتهمونهم بالخروج عن صميم العرب الذين يحتج بقولهم ، وهل الراعي والاخطل مثلا اعرق في الفصاحة من ابن عامر وابن العلاء ؟؟! !

الكلام النبوي

لاتعرف العربية بعد القرآن الكريم كلاماً يسامي الكلام النبوي او يدانيه ؛ فصاحة مبنى ، وبلاغة معنى ، وبراعة تركيب ، وجمال اسلوب ، وروعة تأثير ، لا يختلف في ذلك مخالف ، ولا يمتري ممار ، ومع ذلك تجد النحاة ، متقدميهم ومتأخريهم ، لم يعتمدوا عليه في الاحتجاج لتأييد قواعدهم واثبات ضوابطهم ، واول من اقدم منهم على ذلك ابو الحسن الاندلسي المعروف بابن خروف (المتوفى سنة ٦٠٩) ثم (جمال الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٧٢) وقد توسع في هذا الشأن توسعاً نَفَّس فيه على العربية بعض الشيء ، ولكن القوم اقاموا عليه النكير ، ورموه بالخروج عن سنن النحويين ؛ المتقدمين منهم والمتأخرين ، وكان اشدهم انكاراً عليه ابو حيان (المتوفى سنة ٧٤٥) ، وقد اطال في تعليل انحراف النحاة عن الاحتجاج بالحديث ، ويتلخص تعليله في امرين : (اولها) ان المحدثين اجازوا نقل الاحاديث بالمعنى ، ولم يتقيدوا باللفظ ، (الثاني) وقوع اللحن في بعض الاحاديث ، لان في الرواة من ليس عربياً بالطبع ، ولا علم له بصناعة النحو .

اما التعليل الثاني فانه اوهى من ان يقوى على محك النقد ، لانه ضرب من ضروب المصادرة في الاستدلال ، اذ لو احتجوا بالاحاديث لما وسعهم اتهامها باللحن ، ولكان ما اعتبروه لحنا مثالا يحتذى في العربية ، وبرهانا على صحة امثاله من ضروب القول ؛ كسائر الكلام الذي يحتج به .

والقول بان في رواة الحديث اعاجم ليس بشيء ، لان ذلك يقال في رواة الشعر والنثر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللذين يحتج بهما فان فيهم الكثير من الاعاجم ، وهل في وسعهم أن يذكروا لنا محدثا ممن يعتد به يمكن ان يوضع في صف (حماد) الراوية الذي (كان يكذب ، ويلحن ، ويكسر) ومع ذلك لم يتورع الكوفيون ومن نهج منهجهم عن الاحتجاج بمروياته ، ولكنهم تحرجوا في الاحتجاج بالحديث ، ثم لو وصل الامر برواة الحديث الى هذه الدركة من الجهل بالعربية سليقة وصناعة ، لما صح الاحتجاج بمروياتهم في الشريعة ، لان تفريطهم — حينئذ — بالالفاظ يسري الى التفريط بالمعاني ، اذ المفروض انهم يجهلون العربية من طرفيها ، ولم يقل بذلك قائل .

واما التعليل الاول فقد كفانا الدماميني مؤونة تفنيده بقوله : « ان اليقين ليس بمطلوب في هذا الباب ، وانما المطلوب غلبة الظن ، الذي هو مناط الاحكام الشرعية ، وكذا ما يتوقف عليه من نقل مفردات الالفاظ ، وقوانين الاعراب ، فالظن في ذلك كله كاف ، ولا يخفى انه يغلب على الظن ان ذلك المنقول المحتج به لم يبدل ، لان الاصل عدم التبديل ، لا سيما والتشديد في الضبط ، والتحري في نقل الاحاديث شائع بين النقلة والمحدثين ، ومن يقول منهم بجواز النقل بالمعنى فانما هو عنده بمعنى التجويز العقلي الذي لا ينافي وقوع نقيضه ، فلذلك تراهم يتحرون في الضبط ويتشددون مع قولهم بجواز النقل بالمعنى ، فيغلب على الظن من هذا كله انها لم تبدل ، ويكون احتمال التبديل فيها مرجوحا فيلغى ولا يقدح في صحة الاستدلال بها ، ثم ان الخلاف في جواز النقل بالمعنى انما هو فيما لم يدون ولا كتب ، واما ما دون وحصل في بطون الكتب فلا يجوز تبديل الفاظه من غير خلاف بينهم ... وتدوين الاحاديث والاخبار بل وكثير من المرويات وقع في الصدر الاول قبل فساد اللغة العربية حين كان كلام اولئك المبدلين — على تقدير تبديلهم — يسوغ الاحتجاج به وغايته — يومئذ — تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به ، فلا فرق بين الجميع في صحة الاستدلال .. » اه

على ان في الاحاديث طائفة كبيرة تتوفر الدواعي على الاحتفاظ بنصوصها من غير ما تغيير ، مثل الادعية والاذكار ، وسائر ما تتعبد بنصه من الآثار ، والاحاديث القصار ، التي سارت مسير الامثال ، والكتب التي بعث بها الرسول الكريم الى الاطراف ، والعهود المدونة ... الخ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم لا ادري لمَ ترفع النحويون عما ارتضاه اللغويون ؟ من الانتفاع بهذا الشأن ، والاستقاء من ينبوعه الفياض بالعذب الزلال ، فاصبح ربع اللغة به خصيباً ، بقدر ما صار ربع النحو منه جديباً .

وكان حالهما في الحكم واحدة لو احتكمنا من الدنيا الى حكم

كلام العرب الموثوق بعربيتهم :

يراد بهؤلاء عرب الجاهلية وصدر الاسلام الى ما يقارب النصف الاول من القرن الثاني للهجرة عندما اختلت العلائق ، واختبلت الالسنة ، وعب عباب اللحن في الحواضر ، وطفق يدب الى الارياف والبوادي ، وقد احتج النحاة بالمنظوم والمنثور من كلام الجاهليين ، والمخضرمين ، والاسلاميين ، وطرحوا كلام المولدين والمحدثين .

وذكروا في ساقة الاسلاميين (ابراهيم بن علي) المعروف بابن هرمة وكان قد توفي في اواسط القرن الثاني للهجرة ، وذكروا على رأس المولدين (بشار بن برد) المتوفى سنة ١٦٧ .

وقد كان بعض قدماء النحاة لا يرون الاستشهاد بشعر (جرير) و(الفرزدق) و (الاخطل) ومن في طبقتهم ، فاذا جاء شيء من كلامهم لا يطبق على المقاييس التي قدروها صاحوا بوجه القائل : لحنت ، واسأت ، واخبار عبد الله ابن ابي اسحاق الحضرمي (وهو من الموالي) في تلحين الفرزدق وما وقع بينهما من ملاحاة — مشهورة .

وقد ارتقى الامر ببعضهم الى تلحين بعض فحول الجاهلية كما وقع لعيسى بن عمر ، فانه كان يقول أساء النابغة بقوله : « في انيابها السم ناقع » وكان عليه ان يقول : (ناقعا) ويقول ابن فارس : ما جعل الله الشعراء معصومين يوقون الغلط والخطأ ، فما صح في شعرهم فمقبول ، وما أبته العربية واصولها فمردود كقوله : الم يأتيك والانباء تنمى .

وقوله : لما جفا اخوانه مصعبا ، وقوله : قفا عند مما تعرفان ربوع .

فكله غلط وخطأ .. — اه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نعم ليس في الدنيا من يزعم ان الشعراء معصومون من الخطأ ، ولكن ذلك انما يقع في المعاني ، لا في الالفاظ والتراكيب التي هي نتاج سلائقهم ، وهدتهم اليها طبائعهم .

ولا ندري بعد تلحينهم ابناء اللسان ، علامَ يستند النحوي وبمَ يحتج ؟ وهل قواعد هذا النحو واصوله الا منتزعة من استقراء كلام هؤلاء وامثالهم ، وكيف يسوغ لنا ان نطلب الى امراء القول وقادة القريض ، ان يدينوا في قولهم ، لقواعد وضوابط انتزعناها من استقراء بعض كلامهم وكلام امثالهم ، واذا نحن وصمناهم باللحن في موطن فمن يضمن لنا سلامتهم من اللحن في مواطن اخرى كنا اتخذنا منها سنداً في تقرير اصل ، وتأييد رأي .

نعم لو قالوا فيما لا ترضاه مقاييسهم الوضعية : هي لغة ولكن المتكلمين بها ليسوا بالاكثر حصى ولا بالأنبه قبيلا ، ولا بالافصح قيلا — لهان الامر ، لان القبائل تتفاوت بلُغاها تفاوتا كبيرا ؛ فلغة ازد عمان — مثلا — لا تسامي لغة هذيل ، وهذه لا ترتفع الى موازاة لغة قريش ، بسطة في الرفعة وثروة في الفصاحة ، ولكنهم ابوا الا ان يجعلوا لضوابطهم سلطاناً يستبد حتى بأفواه اهل اللسان ، مع انهم القدوة واليهم المصير في مادة هذه الضوابط ، واستخراج تلك القوانين .

على ان الجمهور لم يلتفتوا الى هذا التحكم ، واحتجوا بالمنثور والمنظوم من كلام اهل الطبقات الثلاث ، بل تجاوزوهم الى بعض اهل الطبقة الرابعة وقد احتج سيبويه ببعض شعر بشار ، مع انه مولد بالاجماع .

ويرى الزمخشري الاحتجاج بكلام ائمة اللغة وكبار رواتها من المحدثين ، جاعلا ما يقولونه بمنزلة ما يروونه ، ثم ان النحاة ولا سيما البصريين منهم لم يعتمدوا بكل القبائل العربية على حد سواء ، بل كان جل اعتمادهم على القبائل الضاربة في كبد الجزيرة ، مثل قيس ، واسد ، وتميم ، وهذيل ، وبعض كنانة ، وطيء .

ولم يصل الى ايدي النحاة من كلام القبائل الموثوق بها الا بعضه ، قال ابو عمرو ابن العلاء (ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير) اه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبهذا وذاك يظهر ما رزئ به الاستقراء من النقص في هذا الشأن : استخفاف بعض أهل اللسان وتلحينهم في لسانهم ، عدم الاعتماد على الكثير من القبائل ، افلات الكثير من كلام القبائل المعتد بكلامها . كل ذلك مما يفت في عضد الاستقراء ويضع من شأنه ، زد على ذلك أن معظم مادة الشاهد كانت من منظوم القول ، وكانوا اذا وجدوا فيه ما لا ينطبق على مقاييسهم ، وأعيتهم الحيل في توجيهه ، حملوه على الضرورة ، والضرورة عندهم مركب وطيء ، فكل ما جاء في النظم مما تأباه ضوابطهم يمكن حمله على الضرورة سواء أكان للشاعر منه مندوحة أو لم تكن . قال بعضهم : الشعر نفسه ضرورة وان كان الشاعر يتمكن من الخلاص بعبارة أخرى . وحاول ابن مالك أن يحدها بما ليس للشاعر عنه مندوحة ، فلم يسمعوا لقوله وأصروا على تفسيرها بما يقع في النظم دون النثر كأنهم أحاطوا علماً بالنثر كله من جميع أطرافه فاذا جاءهم شعر يخالفه قالوا هذا ضرورة . وقد علمنا نزارة ما وصل الى ايديهم من الشعر بله النثر . ألا تراهم أخفروا ذمام بعض القراآت المتواترة في اسمى نثر عرفه اللسان العربي المبين وما ذلك الا لقصور بعض مقاييسهم عن الانطباق عليها ، فكيف يتأخرون عن الاعتصام بالضرورة ذات المعقل الحصين . وهكذا سقط الاحتجاج بمجموع غير يسير من شعر القبائل المعتد بها والمعتمد عليها في الشاهد ، من جراء الاتكاء على الضرورة في المنع ، رأينا مبلغ انتفاعهم بالقرآن الكريم وكيف افتأتوا ببعض ضوابطهم على بعض قراءاته المتواترة ، وعلمنا تفريطهم في جنب الكلام النبوي ذلك التفريط الملوم

وأشرنا الى مدى استقرائهم للمنظوم والمنثور من كلام أهل الطبقات الثلاث وكيف تحكموا في المنظوم اكثر مما حكموه .

كل هذا يشير الى أن هناك مجالا للاصلاح جديراً بأن تحتشد له الهمم ، وتحبس عليه العنايات حتى يثق أمره ويتسق بدره .

وقد أشرنا في موطن آخر من هذا المقال الى أن التشديد في التحديد افضى الى التحريج على الاقلام والالسنة ، وانتهى الامر بتلحين علماء اللسان بعضهم بعضاً ، أما تلحين أهل العلوم الشرعية والكونية في مصطلحاتهم فحدث عن البحر ولا حرج .

ولقد أفردت المصنفات في إحصاء الخطايا اللسانية على حملة الاقلام ولاسيما خواصهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كما فعل ابن قتيبة في بعض أبواب أدب الكاتب ، وأبو العباس ثعلب في فصيحه ، وعبد اللطيف البغدادي في الذيل والحريري في درة الغواص .

وإذا أنت تصفحت تلك الكتب نقف على مبلغ ما وصل اليه التحكم في الالسنة والأقلام ولاسيما عند المتطرفين من النحويين ، حتى انتهت بهم الحال الى أن ضاق النحو نفسه عن أن يسع نفسه ، فضلا عن سائر العلوم ، ولا سيما التي لا عهد للسان المبين بها من قبل .

وهاك نموذجاً مما وصمت به أقلام الاعلام من الانحراف عن سنن تلك الضوابط التي لولا التحريج فيها لسلمت تلك الاقلام من سمة الوصم .

قالوا : لا يجوز إدخال (ال) على (كل) و (بعض) ولكنهم تهافتوا على استعمالها بأل غير آبهين لقيدهم حتى نسب لبعضهم الجهل به . قال ابو حاتم : وقد استعملها الناس (يعني بأل) حتى سيبويه والاخفش في كتابيهما لقلة علمهما بهذا النحو اهـ . وفي بعض كتب النحو يدل (البعض) من (الكل) و (بدل الكل من البعض)

وقالوا : لا تستعمل (كافة) إلا منصوبة ومجردة من أل والاضافة . قالوا ومثلها (قاطبة) و (طرا) و (معا) و (عامة) ولكنهم لم يتحرجوا في استعمالها في كتبهم ، على خلاف ما قرروه . من ذلك قول أبي الفتح ابن جني في الخصائص : « افتجمع كافة اللغات على ضعف ونقص ؟ نعم ونحن نعلم أن القياس مقتضٍ لصحة لغة الكافة » وجاء في خطبة المفصل لجار الله الزمخشري (ولقد ندبني ما بالمسلمين من الارب الى معرفة كلام العرب لانشاء كتاب في الاعراب محيط بكافة الابواب) وقال الحريري في المقامة المراغية (واستعنت بقاطبة الكتاب فكل منهم قطب وتاب)

وعقد سيبويه في كتابه باباً لما يحذف المستثنى فيه استخفافاً ذكر فيه أنه يقال : « ليس غير وليس إلا كأنه قال ليس الا ذاك وليس غير ذاك ، ولكنهم حذفوا ذلك تخفيفاً واكتفاء بعلم المخاطب ما يعنى » اهـ

وقال ابو سعيد السيرافي في شرح هذا الباب : « الحذف الذي استعملوه بعد الا وغير انما يستعمل اذا كانت الا وغير بعد ليس ، ولو كان مكان ليس غيرها من الفاظ الجحد لم يجز الحذف ، لانقول بدل (ليس الا) (لم يكن الا) ولا (لم يكن غير) اهـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجاء آخرون فمنعوا ان يقال : لاغير ، وكان المانعون اكثر تهافتاً على استعمال ما منعوه من غيرهم ، فقد كرر ابن هشام الانصاري المنع في كتبه ، وكرر استعمال ما منعه فيها وجاء في الخصائص « شذذته ايضا اشذه ، بالضم لا غير » .

وحاول بعضهم انقاذ العلماء من التورط في اللحن فحكم بجواز استعماله ، واستند الى سماع وقياس ، وقال سيبويه « اما (نعم) فعدة وتصديق واما (بلى) فيوجب بها بعد النفي . اه يريد انه اذا سأل سائل : اليس فلان حاضرا ، فقيل نعم ، كان معناه النفي اي فلان ليس بحاضر ، واذا قيل بلى كان معناه الايجاب ، اي فلان حاضر ، فنعم مصدقة للجملة التي قبلها موجبة كانت او سالبة ، وقد استعمل سيبويه (في عرض مناظرة جرت بينه وبين احد النحويين ذكرها في باب النعت ج ١ صفحة ٢٢٧) نعم موضع بلى فاوجب بها بعد النفي ، فقال ناس هذا لحن ، واطال آخرون في الجواب عنه بما تراه مبسوطا في كتبهم ، ومنعوا ان تتلقى بينا باذ واذا ، وكان اشدهم انكاراً لهذا الاستعمال الحريري في درته ، قال : « والمسموع عن العرب بينا زيد قائم جاء عمرو بلا اذ . » مع ان كتب العربية مشحونة بهذا الاستعمال ، هذا الحريري نفسه يقول في مقاماته « فبينا انا اطوف ، وتحتي فرس قطوف ، اذ رأيت . » وقال : فبينا انا عند حاكم الاسكندرية ، اذ دخل شيخ . « وقال » بينا انا اسعى واقعد ، واهب واركد ، اذ قابلني شيخ يتأوه . » .

ومنع في درته ايضا ان يقال : (سقط في يده) بالبناء للمعلوم ، واوجب البناء للمجهول ، وقد جاء في المقامة السابعة والثلاثين من مقاماته : « فسقط الفتى في يده » ومنعوا ان يقال من العلة (معلول) واوجبوا ان يقال (معل) وقد وقع ما منعوه في الكثير من كتب العربية ، وهو في جملة مصطلحات العروضيين ، بله المحدثين والاصوليين ، والمتكلمين .

ونخشى ان نحن استرسلنا في سرد الامثلة ان نمل القارئ ، ونضجره .

فعلينا ان نأخذ بعنان القلم ونعطفه الى ناحية اخرى من نواحي البحث لها اثرها في تكييف هذا العلم وتلوين مباحثه بالوان قد لا تروق انظار رجال التعليم في هذا العصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الامعان في مباحث الاعراب :

من الواضح ان النحو يعنى بهمتين: الاولى صحة تأليف الكلم للابانة عما في النفس من المقاصد ، والثانية معرفة احوال الاواخر من اعراب وبناء ، فيطلب اليه ان يقوم بعصمة اللسان والقلم عن الخطأ واحوال اواخرها .

ولكن النحاة ولا سيما متأخريهم صرفوا جل عناياتهم الى معالجة الشق الثاني ، فاطالوا الكلام ، وامعنوا في الجدال حوله ؛ فاسهبوا في تعداد العوامل ومرد انواعها ، وما يعرض لامزجتها من العلل وما يتصل بها من الخلل ، وبسطوا القول في المعربات والمبنيات واسباب اعرابها وبنائها ، وانواع الاعراب ، وعلامات كل نوع ، واكثروا من النظريات المتباينة حولها الخ ...

اما الشق الاول فكان حظه من الرعاية أقل من حظ قرينه ، مع انه المعاد في التفهم والتفهيم ، وعليه المعول في الابانة عما في النفس من الاغراض .

فمعرفة الفرق بين قولنا مثلا : اهاشم في المدرسة ؟ وقولنا في المدرسة هاشم ؟ وبين قولنا : أهاشم أم فالح في المدرسة ؟ وقولنا : أفي المدرسة هاشم أم فالح ؟ وقولنا : هل في المدرسة هاشم أم فالح ؟ اهم بكثير من معرفة الحركات الاعرابية في أواخر هذه الكلم . اذ لا جدال في ان صحة التركيب أوثق من الاعراب ارتباطا بجوهر الكلام ، ولذلك نجد من يعرف صحة تأليف القول بممارسة كلام الفصحاء اقدر على تفهم ما يريد ، وتفهم ما يراد ، ممن يعرف خصائص الاعراب ، ويجهل اصول تأليف الكلم .

ويظهر ان السبب في انصباب النحاة الى مباحث الاعراب اكثر من انصبابهم الى مباحث التركيب ان طلائع اللحن ظهرت في اعراب اللغة قبل ظهورها في مجاري التأليف ، كما يشهد بذلك الاسباب التي استفزتهم لوضع النحو ، ثم ان الاعراب اسمى حلية تتحلى بها لغة مضر ، فليس عجبا ان يستبي الانظار ويستبد بالهمم ، ولهذا استهوتهم مباحثه ، ولم تزل ترمي بهم المرامي وهم يتغلغلون في احشائها حتى خرجت بهم في بعض الاحياء الى آراء متنازعة ، ومذاهب ملتوية قد لا يرجى منها الوصول الى ثمرة شهية ، او فائدة عملية وهاك امثلة من ذلك :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قالوا : الاسماء الستة تكون في حالة الرفع بالواو ، وفي حالة النصب بالالف ، وفي حالة الجر بالياء ، ثم اختلفوا في علامات اعرابها على مذاهب شتى منها :

١ — هذه الاحرف نفسها ، ٢ — حركات مقدرة في الحروف وقد اتبع ما قبل الآخر للآخر ، ٣ — الحركات التي قبل الحروف ، والحروف اشباع ، ٤ — الحركات التي قبل الحروف ، وهي منقولة منها ، ٥ — الحركات التي قبل الحروف ، وليست منقولة ، بل هي الحركات التي كانت عليها قبل ان تضاف فثبتت الواو في الرفع لاجل الضمة ، وانقلبت ياء لاجل الكسرة ، والفا لاجل الفتحة ، ٦ — الحركات والحروف معا ، فهي معربة من مكانين ، ٧ — التغير والانقلاب في حالتي النصب والجر وعدم ذلك في حالة الرفع ، ٨ — (فوك) ، و (وذو) معربان بحركة مقدرة في الحروف ، والاربعة الباقية معربة بالحروف ، ٩ — بالعكس ، اي ان الاسمين الاولين معربان بالحروف ، والاربعة الباقية معربة بحركات مقدرة ، ١٠ — حركات مقدرة في الحروف التي قبل حروف العلة منع من ظهورها كون حروف العلة تطلب حركات من جنسها ، ١١ — الحروف دلائل اعراب والاعراب فيها لا ظاهر ولا مقدر ، ١٢ — النقل في حالة الرفع ، والبدل في حاله النصب ، والنقل والبدل معا في حالة الجر . ولكل مذهب من هذه المذاهب انصار يؤيدونه ، ومخالفون يفندونه ، ولكن هذه الضجة كلها لم تزحزح الاسماء الستة عن كونها بالواو في حالة الرفع ، والالف في حالة النصب ، والياء في حالة الجر ، ومثالا آخر ، قالوا يكون المثنى بالالف في حالة الرفع : وبالياء في حالتي الجر والنصب ، ويكون جمع المذكر السالم بالواو في حالة الرفع وبالياء في حالة الجر والنصب ، واختلفت مذاهبهم في اعرابها ، وهاك المشهور منها : —

١ — انهما معربان بالاحرف المذكورة نفسها ، ٢ — بحركات مقدرة فيما قبل هذه الاحرف ، ٣ — بحركات مقدرة في الاحرف نفسها ، ٤ — الحروف دلائل اعراب ، بمعنى انك اذا رأيتها فكأنك رأيت الاعراب ، ٥ — بقاء الالف والواو رفعا وانقلابهما جرا ونصبا ، وعليه يكون الاعراب معنويا لا لفظيا ولا مقدرا ، ٦ — ان المثنى مبني .

ثم جاءوا الى نونيهما فقالوا انما زيدت فيهما : ١ — لرفع توهم الاضافة في بعض المواطن ، ولرفع توهم الافراد في بعض ، ٢ — انها عوض من حركة المفرد ، ٣ — عوض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من تنوين المفرد ، ٤ـ عوض من الحركة والتنوين معاً ، ٥ـ عوض من الحركة والتنوين فيما وجدا في مفرده ، ومن الحركة فقط فيما لاتنوين في مفرده ، ومن التنوين فقط فيما لا حركة في مفرده ، وغير عوض فيما خلا مفرده عن الحركة والتنوين ، ٦ ـ هي فارقة بين رفع المثنى ونصب المفرد ، ثم حمل سائر التثنية والجمع على ذلك ، ٨ ـ انها التنوين نفسه ولكنه حرك لاجل الساكنين .

ثم انتقلوا الى حركة هذه النون فقالوا وأطالوا

كل هذا التنازع لم يبدل شيئاً من الحالة التي استقر عليها العمل في المثنى والجمع ونونهما ، وبقيت المنازعات الصناعية في ما وراء ذلك .

واذا أنت استعرضت آراءهم في الإعراب أهو لفظي أم معنوي وأين محله ، ثم أزائد هو على الماهية أم جزء منها ، وهو أصل في الاسماء أو الافعال او فيهما ، ثم الاسماء قبل التركيب مبنية او معربة اولا معربة ولا مبنية الى أمثال ذلك ـ يأخذك العجب من تزاحم الآراء المتنازعة ، وتكاثر المذاهب المتدافعة في نظريات صناعية لا تقوّم لسانا ولا تغذي بياناً .

هذا ونحن نعوذ بالحق ان يشم مما بسطناه أنا نقصد انتقاص جهد من جهود اولينا او نزدري عملا من أعمالهم ، معاذ الله أن يدور في خلدنا شيء من ذلك كيف ونحن في ضعاف الساقة وقفاة الاتباع ، نباهي بالانضواء إلى أعلامهم ، والانتماء الى خدامهم ، وهل استقينا الا من بحورهم ، واقتبسنا إلا من نورهم ، واقتدينا إلا بهداهم ، واهتدينا إلا بضوائهم وهم الذين بجسوا ينابيع هذا العلم ، وشرّعوا شرائعه ، وأنهجوا سبله ، وما برحوا يعالجونه حتى تفتحت لهم أبوابه وذلت لهم عقابه واذعنت لهم مشكلاته ودانت معضلاته .

وكل ما نرمي اليه في هذا البحث إثارة بعض النواحي التي تتطلب خدمة صادقة من أبناء العصر ، وبعبارة أخرى البرهنة على أن ميدان الإصلاح في هذا الشأن وسيع ومجال الخدمة فسيح .

ولعمري ان هذا العلم لم يعدم في عصر من العصور انصاراً يعكفون على خدمته ويضطلعون بتوسيعه وصقله وتهذيبه ، الا في الفترة التي استولى فيها الجمود على الافكار والاقلام في العصور المظلمة الاخيرة ، وإلا فنحن نعرف أن هذا العلم في زمن يونس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والخليل وسيبويه والكسائي والفراء أرفع منه شأنًا في زمن ميمون الاقرن وعبد الله ابن إسحق الخضرمي وأبي عمرو بن العلاء ، وهو في زمن أبي الفتح ابن جني وشيخه أبي علي الفارسي وابن خالويه ، انضروجها منه في زمن من سبقهم . ثم هو في زمن ابن مالك وأبي حيان وابن هاشم الانصاري اكثر تهذيبا ، وأتقن تفصيلا وتبويبًا منه في العصر الخالي ، وكلٌّ أصلح بمقدار ما تسخو به الطاقة ، وعلى قدر ما يتطلبه العصر من خدمة .

وبقي علينا ان ننبه الهمم ونستنهض العزائم لرأب ما أسأرته الايام في هذا العلم من من الثأي ، ونصطفي من تلك الآراء أصوبها ، ونسلك من تلك الطرق أنهجها ، ونلم الشعث من تلك المسائل التي عصفت بها أعاصير الجدال ففرقت شملها ، ونعطي الناحية العملية حقها من الرعاية ، ولا نعني بشيٍّ من النظريات الا بما له مساس مباشر أو غير مباشر بالعمليات .

ثم نهذب ذلك كله تهذيبًا علميًا ونرتبه ترتيبًا فنيًا ، ونخرجه للناس كتابًا سويا .

هذه نظرتنا في النحو ولنا كلمة في كتبه المتداولة سنقولها فيما بعد .

طه الراوى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net